



وليم هازلت

١٧٧٨ - ١٨٣٠

وليم هازلت هو أحد أفذاذ الانجليز الذين ظهوروا في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، والذين لعبوا دوراً هاماً في تهذيب الأدب الانجليزي والسمو به الى درجة قلما تجد لها مثيلاً في سائر عصور الأدب الانجليزي. فقد كان هازلت ناقداً نافذ البصيرة، وكاتباً من أرق طراز، وصحافياً لا يشق له غبار، وفناناً نافعاً. وكان الى جانب ذلك وطنياً متحمساً ومصالحاً صادقاً تشجع بمبادئ الثورة الفرنسية وامتزجت الحرية بدمه فعبد روسو وقدس نابليون.

ولا يتسع لي المجال لأن أتحدث عن تلك الشخصية العظيمة المتشعبة النواحي ولكني أرى لزاماً عليّ أن أذكر شيئاً ولو بسيطاً عن هازلت كناقذ قد يعين القارئ المثقف على فهم تلك القطعة التي كتبها عن الشعر

لقد فهم هازلت الفن وكتب فيه الكتب التي تكشف لنا عن تلك الملكة القوية الفعالة التي وقفت على أصرار الفن العميقة والتي تدل على فهمه واحاطته بكل أنواع الجمال، ولكنه كسائر الكُتّاب الرومانتيك قد غنى قليلاً أو لم يعن مطلقاً بالتفسير الفلسفي للفنون.

وقد حاول في كل كتاباته أن يكون أميناً مع نفسه فلم تعوزه الشجاعة ليتحدث بصدق عما شعر ورأى.

وإن كان هازلت لم يعد في كل ما كتب تجارب شعوره الخاص فهو على أي حال قد تحدث عما أحب من الصور لا لأنه جرى على تلك العادة التي تفرم بنوع خاص منها، أو لأنه رآها في معرض الجمال، ولكن لأنه أحبها.

وقد أغرم بالمرح الذى يقول عنه : « نحن نحب المسرح لأننا نحب أن نتحدث عن أنفسنا ، ونحن لا نحب شخصاً لا يحب الروايات التمثيلية » .
 وإن كان هازلت يخالف النقاد الذين أنوا بعده والذين جاعوا بنظريات ثابتة فى النقد متأثرين بالفلسفة التجريبية ونظريات التطور العلمى الحديث التى مست كل أنواع العلوم ولم تترك الأدب دون أن تصيبه ببعض الشرر ، والتى كان من أثرها تحديد البيئة و اظهار مقدار تأثيرها فى الشاعر أو الكاتب ، إلا أنه لم يعدم قوة التمييز الدقيقة التى ربما كانت أولى صفات الناقد الحاذق ، ولقد توفرت لها صفات أخرى لم تتوفر فى أى ناقد آخر ، فقد أحب الشعراء والكاتب حباً عميقاً وانكب على دراسة مؤلفاتهم حتى أصبحت عباراتها مألوفاً عنده نجوى على لسانه كما نجوى آيات الكتاب على لسان الواعظ .

وقد يؤخذ عليه إسرافه فى هذا الحب الذى ربما أبعد قليلاً عن الوقوف على نقائص الشاعر أو الكاتب المنقود .

وطريقته فى نقد شخص أو كتاب هى أن نجبرنا عن كيفية حبه أو كراهيته له ، وفى كل نقده يحاول أن يوقفنا على إعجاب به هذا الشاعر سواء أكان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر .

أما تلك القطعة التى أعرضها أمام القارىء فى محاضرة ألقاها هازلت عن الشعر عاماً ، وهى زعيمة بإيقافنا على رأى هازلت فى الشعر الذى كان كل حياته . وقد أفاض هازلت فى شرح ماهية الشعر لأنه موضوع قلما أحاط به شخص ممن كتبوا فيه . وكما أن هازلت كان رجل حسن شعور فهو لم يرض أن يخضع الشعر لصور الكلام أو قوانين العلم .

إن هذا الموضوع دقيق التركيب فى أصله فهو ليس تاريخياً للشعر ولكنه تحليل لعناصره الجوهرية ومحاولة للكشف عن أسراره الخفية والوقوف على ما فيه من روعة وجمال ، فهو موضوع يعالج عنصراً هاماً من عناصر وجودنا بل بكل عناصره فوجودنا شاعر وحياتنا شاعرة .

فلا غرابة إن دق التعبير فى بعض المواقف أو خفى المعنى وراء الكلمات أحيانا فإن هذا راجع إلى سمو الفكرة ودقة التعبير عنها ، ولأن الكاتب قد أورد تشبيهات واستخدم تعبيرات يألفها القارىء الانجليزى ولا يألفها القارىء العربى .

الشعر

للكاتب والناقد الانجليزي الشهير وليم هازلت

« إن أصدق تعريف يمكن أن أعرف به الشعر هو انه الصورة الطبيعية لأي غرض أو حادثة ، فان قوته تولد في الخيال والعاطفة، حركة غير إرادية وتبعث رخامة في الأصوات المعبرة عنها ... »

وفي معالجة هذا الموضوع « الشعر » سأتكلم عن موضوعه أولاً ، وعن صور الافصاح التي يبعثها ثانياً ، وعن ارتباطه بموسيقى الصوت بعد ذلك : فالشعر لغة الخيال والعواطف ، فهو يتصل بكل شيء يبعث لذة أو ألماً في الانسان وهو يستقر في صدور الناس وأعمالهم لأنه ما من شيء يستقر فيها في أعم وأوضح صورة إلا ذلك الذي يمكن أن يكون موضوعاً للشعر ، والشعر هو اللغة العالمية التي تصل القلب بالطبيعة .

وإن الذي يمتن الشعر ويحط من قدره لا يمكن أن يقدر نفسه كثيراً أو يقدر أي شيء آخر ، فهو ليس بمجرد حمل نأفه كما يتوهم البعض أو نوعاً من التسلية زهيداً لبعض القراء الخاملين في ساعات الفراغ ، ولكنه دراسة للانسان وبهجته في سائر العصور .

ويظن كثير من الناس أن الشعر شيء يوجد في الكتب فقط ، في تلك السطور المقفاة والموزونة ، ولكن حينما توجد حاسة الجمال أو القوة أو المرسيتي كما في حركة موجة البحر أو في نمو الزهرة التي تنشر أوراقها العطرية في الهواء وتكرس جمالها للشمس يوجد الشعر .

فليس الشعر فرعاً من فروع التأليف ولكنه المادة التي تكوّنت فيها حياتنا ، أما سواه فشيء منسى وخطاب مدفون لأن كل شيء يسمو في الحياة بمقدار ما فيه من الشعر .

الخوف شعور ، والأمل شعر ، والحب شعر ، والكرهية شعر ، والارادة والحقد وتأنيب الضمير والاعجاب والجلال والرحمة واليأس والجنون محل هذه شعر . فالشعر هو أدق أجزائنا الداخلية وهو الذي يوسع ويرقق ويهذب ويسمو بوجودنا .

فبدونه كانت حياة الانسان تفسد كحياة الحيوان الأعجم . والانسان حيوان شاعر ، وأولئك الذين لا يفقهون نظريات الشعر وقواعده يسرون عليها في جميع شؤون حياتهم كمثل Bourgeois Gentilhomme لموليير الذي كان يتكلم النثر دائماً دون أن يعلم بذلك .

والطفل شاعر في الحقيقة عند ما يبدأ في لعبة الاختفاء والبحث أو يستعيد قصة جاك القائل الجبار ، والراعي شاعر عند ما يشرع لأول مرة في ترويض سديته بالكليل من الأزهار . والريفي عندما يقف يشاهد قوس قزح ، والصانع الصغير عندما يتأمل في الورد العظيم . والبخيل عندما ما يعانق ماله ، ورجل البلاط الذي يبني آماله على ابتسامة ، والهمجي الذي يلطخ معبوده بالدم والعبد الذي يعبد سيده وسيدة الذي يظن نفسه آلهة ، والمعجب بنفسه والطموح والمتكبر والرجل السريع الغضب ، والبطل والجبان ، الشاب والكهل . كل أولئك يعيشون في دنيا من خيالاتهم . وليس للشاعر عمل أكثر من أن يفصح عن أفكار وأعمال الآخرين .

ولو كان الشعر حلاً كانت الحياة حلاً كذلك ، ولو كان خيالاً جاء من وضع الأشياء كما نرغب ، فلا توجد هناك حقيقة أصدق وأفضل . فاريستو قد وصف حب ميدورو وأنجيليكا ، ولكن ألم يكن ميدورو الذي نقش اسم حبيبته على قشور الأشجار كثير الافتتان بمحاسنها كما وصفه اريستو ؟ وقد أظهر هو ميروس غضب اخيل ولكن ألم يكن البطل مساوياً للشاعر في جنونه ؟

وقد أبعد أفلاطون الشعراء من جمهوريته لثلاثي يفسد وضمهم للانسان الطبيعي انسانه الآلى الذي أوجده مجرداً من العواطف والميول لا يضحك ولا يبكي ، لا يحزن ولا يغضب ، لا يؤلمه أو يبهجه شيء ، ولكن هذا لم يكن إلا ضغناً أو وهماً وان عالم هو ميروس الشعرى قد عاش أكثر من جمهورية أفلاطون الفلسفية .

فالشعر على ذلك محاكاة للطبيعة ، ولكن الخيال والعواطف جزء من طبيعة الانسان . فنحن نشكل الأشياء حسب رغائبنا وأوهامنا بدون الشعر ، ولكن الشعر أكثر اللغات ثنبيتاً لمبتكرات العقل التي تشمل على عناصر المتعة والجمال . فلا الوصف المجرد للأشياء الطبيعية ولا الانفصاح المحدود عن الشعور الطبيعي مهما يكن قوياً فعلاً . يستطيع أن يحدد غاية الشعر وغرضه دون أن يسمو بالخيال . وضوء الشعر ليس مباشراً فقط ، ولكنه منعكس أيضاً . فبينما يكشف لنا

عن الشيء ذاته يلتقي بأشعة متلازمة حوله . وإن هب العواطف باتصالها بالخيال تكشف لنا كوميض النور عن مواضع الفكر الداخلية وتتخلل في سائر أجزائنا . والشعر يمثل الصور كما ترتبط بصور أخرى غالباً ، أو المشاعر كما تتصل بصور أو مشاعر أخرى أيضاً . وهو يبعث بروح الحياة والحركة الى العالم ، ويصف الحركة لا الجمود . وهو يحصر حدود الحس أو يحلل دقائق الفهم ولكنه يدل على خصب الخيال تحت تأثير عادي لأي غرض ، أو شعور .

وإن الأثر الشعري لأي شيء هو الاحساس العظيم المضطرب بالجمال والقوة الذي لا يمكن أن يبقى في موضعه والذي يضيق بكل الحدود والذي — كما تميل النار للنار — يجدد في ربط نفسه بصورة أخرى من الروعة والجمال ، ويحفظ نفسه كما كان في أسمى صور التخيل ، ويخفف من ألم الشعور بالذلة بالافصاح عنها . ولهذا السبب كان الشعر في نظر اللورد بيكون يتضمن معنى سامياً لأنه يسمو بالعقل إلى سماء الرفعة بترتيبه مظاهر الأشياء على حسب أهواء الروح بدلاً من اخضاعه الروح للمظاهر الخارجية كما يفعل العقل والتاريخ ... فهو اللغة الدقيقة للخيال . والخيال هو تلك الملكة التي تمثل الأشياء لا كما هي في ذاتها ولكن كما تشكل بأفكار ومشاعر أخرى متباينة: نحن نشبه الرجل العملاق بالبرج لا لأنه يساويه حجماً ولكن لأن زيادة حجمه على نظرائه تولد بالتناقض شعوراً أعظم بالكبر والقوة مما يولده شيء آخر في عشرة أمثاله مع نفس الابعاد ، أما شعر المأسى الذي هو أقوى أنواع الشعر تأثيراً فهو يحاول أن يأخذ الشعور إلى أسمى درجات الرفعة والثورة العاطفية ويفقد حاسة الألم الوقتي بالافراط فيه ويضعف الملح والرحمة بالانغماس فيها ، ثم يأخذنا إلى الوراء حيث الماضي ، وإلى الامام حيث المستقبل ويستحضر أمامنا كل حركة من حركات وجودنا ، أو كل غرض للطبيعة في نظرة مستعادة ، وفي ذلك الدور السريع لهذه الحوادث ينتشلنا من أعماق البؤس إلى سعادة الأمل في الحياة فعند ما يتحاث لير عن ادجار في رواية King Lear لا شيء غير بنتيه الجاحدين قد أوصله إلى هذه الحالة ، فما أكثر حيرته والتواء خياله ذلك الذي لا يمكن أن يستحضر ليتدبر كل سبب للبؤس من ذلك الذي هوى به وامتنع كل حزن آخر في نفسه ا فحزنه كبنبوع تنفجر منه الآلام .

وما أبدع رجوع ذلك الاتفعال النفساني إلى عطيل ا وما أشد امتزاج الأسف واليأس في حرارة آلامه عند ما يودع سعادته الزائلة فيقول :

أما الآن فوداعاً إلى الأبد !
 وداعاً أيها العقل الهادي المستقر . وداعاً أيها السعادة !
 وداعاً أيها الجند ذوو الخوذات المزدانة بالأرياش !
 وداعاً تلك الحروب التي تجعل الطموح فضيلة !
 وداعاً ! وداعاً أيها الجياد الصاهلة ، والأبواق المازفة ، والطبول الداوية ؛
 ومزمار الحياة !

وداعاً أيها الراية الملكية !
 وأنتِ أيها الكبرياء والعظمة وساعات الحروب وداعاً !
 وأنتِ أيها الآلات المدمرة التي أهلكت أنفساً ثن أصواتها يوم النشور وداعاً !
 ان مجد عطيل قد ذهب ولن يعود !

وكيف أن شعوره النفساني يزداد ويتضخم ويشور كتيار دافق في مجرى عميق
 عند ما يجيب تلك الشكوك التي حامت حول حبه الذي يعاوده فيقول :

« أبدأ ، يا جو ! إن أفكارى الجهنمية ستخطو الى الامام ، ولن تنظر ورامها
 ولن تعود للحب الرادع حتى يلتهمها ذلك الانتقام الفطيع .
 ثم تصل با الغيرة القوية إلى مدى عظيم فيقول منادياً الانتقام :
 « وأنت أيها الانتقام الاسود الفطيع اسبقظ من فراشك الخيف ! وأنت أيها الحب
 سلم عرشك الذي تربعت عليه في مملكة قلبي !

الى الكراهية العنيفة » .

وحالة واحدة يثير فيها المنظر المسرحي عطفنا دون أن يثير تفرزنا هي تلك التي
 نقوى الشر وتقوى أيضاً الرغبة في الخير ، وترقى إدراكنا للنعمة بأن تجعلنا نشعر
 بأهمية ما نفقده .

وعاصفة الشوق تكشف لنا عن أغنى أعماق الروح الانسانية، وكل حياتنا ومجموعه
 هوائنا وأمانينا وذلك الذي نشتهي وذلك الذي نخاف تعرض أماننا بطريق التناقض .
 وشدة العذاب السريع تبعث فينا شوقاً أكثر مدة وتمازجاً في الشعور أكثر اتصالاً
 بعالم الخير وتجعلنا نفترق أكثر وأعمق من قدح الحياة الانسانية وتجذب خيوط

القلب وتفك الضيق الذي يحيط بها وتدعو ينابيع الفكر والشعور الى مشاهد الرواية بمشرة أضعاف القوة .

ومع ذلك فاللذة التي نحصل عليها من الشعر الباكى ليست شيئاً ملازماً له كالشعر أو أى شئ روائى أو تخيلى ، وهى ليست نقداً فى الخيال اذ تمتد مصدرها وأساسها من الحب العام ومن الثورة النفسية القوية . وكما يقول بيرك Burke : « يتجمع الناس لمشاهدة مأساة ولكن إذا كان هناك فى أحد الشوارع المجاورة منظر لاعدام شخص نسرعان ما يخلو المسرح من المشاهدين ، ونحن نميل إلى ترك أهوائنا العنيفة عند قراءتنا وصفاً عن غيرنا ، وكذلك نميل لخلق ألم من مخاوفنا كما نسمد بآمالنا فى الخير فله سئلتنا لماذا نعمل هكذا كان الجواب لأننا لا نمتطيع مساعدته أو تخفيفه .

فلا احساس بالقوة نظرية قوية فى العقل كالا احساس ذاته وكحب اللذة مثلا . ومظاهر الرعب والاشفاق تولد نفس السلطان عليه كما تبعته مظاهر الحب والخيال فمن الطبيعى أن نكره كما نعجب ، وأن تفصح عن كراهيتنا ومقتنا كما نعبى عن حبنا والعجابنا .

والهوى العنيف يقودنا الى حيث يجب أو يعاف ، ليس لا نسا محب ما نعافه ولكننا محب أن نعص الطرف عن كراهيتنا ومقتنا له ، وأن نعلو عليه وأن نعتشى رأينا فيه بذكاء حاد وتصوير مشعب وأن نجمله مرعباً لأنفسنا وأن نظهره للناس فى جميع مظاهر تقصه وأن نلبسه للحواس وأن نسميه باسمه وأن نكافئه بالفكر والعمل وندرع ارادتنا ضده ونعرف أردأ الأشياء لئناضله بها وننازله حتى النهاه والشعر يترجم عن ضمير الهوى وهو أقوى صور التعبير عن ادراكنا أى شئ سواء أكان مسراً أم مؤلماً حقيقياً أم جليلاً مبهجاً أم مخزناً . فهو أ كمل مطابقة للصور والكلمات على احساسنا بالشعور الذى نملكه والذى لا يمكننا أن نتخلص منه بأى حال . ذلك الذى يرضى الفكر .

وهذا هو أساس الذكاء والتخيل ، المسلاة والمأساة ، الرزين والهائج . والخيال يعطى حرية مطلقة الى الأمانى المبهمة الملحة على الارادة بتشكيلها فى صور . نحن لا نريد أن يكون الشئ كذا ولكننا نود أن يظهر كما هو لأن المعرفة قوة مدركة والعقل لم يعد فى هذه الحالة خدعة وإن وقع فريسة الذيلة والحق ، والشعر فى جميع صوره لغة الخيال والعواطف والتخيل . وما من شئ أسخف من ذلك

الصوت الذى يرتفع أحياناً من جانب أولئك النقاد الجفأة الأذعياض بإخضاع روح الشاعر الى مقياس الذوق العام والعقل لأن غاية الشعر وممرته - قديماً وحديثاً - كانت ولا تزال مرآة الطبيعة التى ترى بوساطة العاطفة والخيال فلا تظهر بوساطة الصدق الخالص أو العقل الدقيق .

دع ذلك الشاعر الذى يريد سلب الطبيعة ألوان التخيل وأشكاله ، فالشاعر ليس مطالباً بذلك ، وتأثيرات الحس العام والخيال القوى ، أى خيال الهوى الجامح وعدم الاكترات ، لا يمكن أن تتشابه وينبغى أن تكون لها لغة خاصة بها فتعدل بينها . . . والأشياء تؤثر فى العقل تأثيرات متباينة بعيدة عن قيمتها فى نفسها على حسب حالنا فيها من فوائد مختلفة ، وكما زراها فى وجهة نظر أخرى وقربها وبعدها من الجودة والابتكار أو بمقدار إلماننا بها أو جهلنا لها . . . أو من تخوفنا من نتائجها أو من تناقضها أو شكلها المفاجئ . فنحن لا يمكننا أن نبعد عنا ملكة الخيال أكثر من أن نرى جميع الأشياء بدون ضوء أو ظل . فبعض الأشياء يخطف أبصارنا بنوره القوى الأخاذ والبعض الآخر يستولى على جميع مشاعرنا ويحاول أن يجعل دهشتنا تفصح عن غموضه ، فأولئك الذين يبددون هذه الأوهام المتباينة ليقدموا لنا عوضاً عنها شكلها العادى ليسوا من سداد الحكمة فى شيء .

دع العالم الطبيعى يحمل --- إذا أراد - الحشرة التى تدعى (مراج الليل) فى صندوق الى منزله ثم ينظر اليها فى اليوم التالى فلا يجدها الا حشرة رمادية اللون . ولكن دع الشاعر أو محب الشعر يزورها فى المساء عند ما تشيد لنفسها قصرآ من النور الزمردى تحت فروع السوسن العاطرة وأشعة الهلال الباردة ، فهذا جزء واحد من الطبيعة أو جانب واحد قدمته تلك الحشرة ولكن ليس أقلها متعة أو فائدة .

كذلك الشعر جزء من تاريخ العقل الانسانى وإن لم يكن علماً أو فلسفة ، وعلى ذلك لا يخفى أن تقدم المعرفة والتهديب يميل الى الاحاطة بمحدود الخيال وإلى اهانة أجنحة الشعر ، ومملكة الخيال تخيلية فى أصلها فهى العالم غير المعروف غير المحدود ، والفهم أو الإدراك يعيد الأشياء الى حدودها الطبيعية ويجردها من دعاوئها التخيلية . كذلك الحال فى تاريخ الحماسة الدينية والسياسية وكلتاها قد نالتهم صدمة

من تقدم الفلسفة التجريبية فإن الذى يوجد الخيال هو العالم غير المحدود ونحن
 يمكننا فقط أن نتخيل ما لا نعرفه كما ننظر في ثيه غابة متشكلة الأغصان فنملؤها
 بما نشاء من الأشكال، من حيوانات ضارية ومغاور خربة وأما كن موحشة . وكذلك
 شأننا في جهلنا بالعالم المحيط بنا نضع آلهة وشياطين من أول شبح يظهر لنا ولا نجعل
 حدوداً لرغائبنا القوية من آمال وأهوال وتصورات كما تراها عيون الشعراء عالقة في
 كل ورقة ممسكة بكل فرع . فلن يتكرر حلم يعقوب فنذ ذلك الأبن والسماوات قد
 ذهبت بعيداً وأصبحت تابهة لعلماء الفلك يدرسون نظامها ولم تعد صالحة للخيال .
 وليس تقدم المعرفة العلمية فقط هو الذى يناهض روح الشعر ولكن التقدم
 الضرورى للمدينة يناهضه أيضاً ، ولكن لا ينبغي أن نكون أقل تحفظاً من العالم
 الذى فوق الطبيعة ، ولكننا نستطيع أن نكون أكثر ثباتاً وننظر الى هذا الطريق
 المنظم نظرة أقل اكتراناً . فأبطال عصور الخرافات قد خلصوا العالم من الوحوش
 والجبابرة ، والآن نحن أقل عرضة لتقلبات الخير والشر أو إلى غارات الوحوش الكاسرة
 أو فتك اللصوص أو الى الغضب النائر لعناصر الطبيعة وآتى الزمن الذى يقشع
 فيه شعرنا المسبل من مقال عنيف قوى فيهزنا هزاً كما لو كانت حياتنا فيه .
 ولكن نظام المدينة أفسد كل ذلك فلا يمكننا إلا بجهد أن نتصور قتلاً في
 منتصف الليل .

فكبت لم يسمح بها في هذه المملكة - إنجلترا - الا لموسيقاها الجميلة ، وفي
 الولايات المتحدة حيث نظريات الحكومة الفلسفية قد بلغت شأواً بعيداً نظرياً وعملياً
 نجد أن أوبرا الشحاذين قد أهدمت عن المسرح وتطور المجتمع تدريجياً الى آلة
 تقودنا في طريق سهل مريح .

وهذه الملاحظات التى أوردناها تقودنا الى حد ما الى حل مسألة الميزات النسبية
 للتصوير والنحت ، وأنا لا أقصد الى تفضيل أحدهما على الآخر ولكن يجب أن يظهر أن
 النقاش الذى قام أحياناً بأن التصوير يجب أن يكون تأثيره في الخيال أقوى لأنه يمثل
 الصورة في درجة أوضح لم يثبت للبحث تماماً .

ويمكننا أن نقول بدون اعتساف كثير إن الشعر أكثر شاعرية من التصوير
 فعند ما يتحدث الفنانون عن قواعد الشعر في التصوير يظهرون أن حظهم من
 من معرفة الشعر قليل وأن حبههم للفن ليس بالكثير ، فالتصوير يعطى الشيء نفسه

والشعر يبرز ما يحيط به مهما تكن درجة ارتباطه به ولكن هذا الأخير داخل في مملكة الخيال .

ثانياً من حيث علاقتها بالمعاطفة : التصوير يصوّر الحادثة ، أما الشعر فيصوّر تطور الحوادث ، ففي أثناء التطور وفي فترة الانتظار والترقب عند ما تصل آمالنا ومخاوفنا الى أقصى درجات الألم النفسى نجد موطن الجمال الفنى ، ولكن بمجرد ما تنتهى الصورة ينتهى كل شيء . والأوجه هي أحسن أجزاء الصورة ولكن هذه الأوجه نفسها ليست تلك التى تذكرنا بأحسن أنواع لذاتنا ، ولكن ربما يسأل سائل ألا يوجد أفضل من مناظر Claude Lorraine أو رسوم Titian أو صور Raphael أو تلاميذ اليونان ؟

أما عن الاتنين الأولين فلا أقول شيئاً فهما الى التصوير أقرب منهما الى الخيال وأما صور روفائيل فهى لا شك أبدع الشروح التى عملت للكتاب المقدس ، ولكن هل كان تأثيره يكون كذلك فى حالة عدم معرفتنا بالكتاب المقدس ؟ ولكن العهد الجديد وجد قبل الصور - بيبداً أنه يوجد موضع لم تعمل له صورة وهو صورة المسيح وهو يفضل أقدام تلاميذه فى الليلة السابقة لصلبه ولكن هذا الجزء لا يحتاج الى شرح .

أما تلاميذ اليونان فهى أقل من الأشكال الأصلية ، فهى رخام للمس والقلب ولكنها لا تدل على شيء فى داخلها ، فهى فى وجودتها النامة تحمل الكفاية لنفسها ولجمالها فقد سمّت فوق العزم الضعيف والارادة الواهنة فى اللذة والألم . وقد عبدت لجمالها ولكنها لا تحمل فيها عقيدة دينية . وأشكالها أقرب الى الانسانية العادية ويظهر أنها لا تشفق علينا وأنها فى غنى عن إعجابنا بها . والشعر فى جوهره وشكله وصف أو شعور طبيعى قد امتزج بالعاطفة أو الخيال ، وفى أثناء سريانه يمزج الفائدة المأموسة باللغة بالتعبير الموسيقى .

ولكن يوجد سؤال طال عليه السكوت ولم يجب : وهو فى أى شيء يوجد جوهر الشعر ؟ أو ما الذى يحدد تعبیر بعض الناس عن آرائهم نثرأ والبعض الآخر نظماً ؟ لقد أوقفنا ملتون على رأيه فى الشعر وهو : « الشعر هو الأفكار التى تنير فىنا نفحات متوافقة ليست ضد ارادتنا » . وكما توجد أصوات خاصة تنير حركات خاصة أيضاً وكما يتفق الغناء والرقص معاً ، كذلك توجد من غير شك أفكار خاصة

تؤدي إلى نغمات خاصة في الصوت أو في ترخيمه ، وتغير كلمات عطار د الى أناشيد أبولو . ويوجد مثل قوى لهذا الضرب من ملاءمة حركة الصوت والوزن للموضوع في وصف سبنسر للألمة مصطحبة Una إلى مغارة Sylvanus في روايته Fearie Queene وعلى القبيض من ذلك فليس هناك شيء موسيقي أو طبيعي في التركيب العادي للغة ، فهي شيء عُرْفِي أو اصطلاحى تماماً أو هي محض عرف أو اصطلاح وليس هناك في الأصوات نفسها التي هي شارات ارادية لأفكار خاصة وليست داخلية بأنظمتها الأساسية في الكلام العام لنظرية المحاكاة الطبيعية صلة بالأفكار الفردية أو بنغمة الشعور التي تصل بها الى الغير . وخشونة النثر وركا كته وهلهته قاضية على فيض الخيال الشعري كما يشوش الطريق الكثير النجاد والوهاد أو الجواد المتعثر أو هام المسافر المكدود ، ولكن الشعر يقضى على هذه الشواذ فهو موسيقي اللغة مجيبة لموسيقى العقل .

حينما يوجد ذلك الذي يستحوذ على العقل بأن يجعلنا نتغلب عليه مذيين القلب في الرقة أو نضرم فيه شعور الحماسة ، وحينما تطبع حركة الخيال أو العاطفة على العقل الذي به تستطيل وتستعيد العاطفة ليصبح بعضها سائر الأغراض الأخرى ولتعطى نفس حركة النغمات المتفقة القوية المستمرة أو المتباينة تدريجياً — مراعاة للحال — إلى الأصوات التي تعبر عنها كان هذا شعراً . وهناك اتصال قريب بين الموسيقى والعاطفة العميقة فالجانين ينشدون حالما يصل النطق عادة الى اللحن وعندئذ يبتدىء الشعر .

وعند ما تعطى فكرة واحدة نغمة ولونا للأفكار الأخرى وعند ما يذيب شعور واحد المشاعر الأخرى فيه فهناك لا يمكن السؤال لما ذالم تمتد نفس النظرية الى الاصوات التي بواسطتها يخرج الصوت بعواطف الروح وبمزج المقاطع والأسطر بعضها ببعض ، وبالاختصار فعند ما تأخذ لغة الخيال بعيداً عن الأرض وتمكنها من نشر أجنحتها حيث يمكن لها أن تتغاضى عن بواعثها الخاصة تسبح بملكها السامى خلال طبقات الهواء دون أن توقف أو تكاد أو تقف في طريقها العقبات الفجائية وأدوار النثر المتنافرة ، فعندئذ يعرف الشعر ، فهو للغة العامة كالمحور للعربة وكالأجنحة للأقدام .

في الكلام العادي نصل إلى نغمة خاصة بنغم الصوت ، كذلك في الشعر

بترتيب منظم للمقاطع ، وكل كاتب عنده طرق للوزن كثرت أو قلت إلا الشعراء الذين عند تجردهم من التركيب الآلى للشعر يظهرون بكتابة سلبية من الألحان . ومن المسلم به أن القافية تماعد المحافظة في عملها ، ولكن نظم بوب ممل من فرط عذوبته ووحدة الشكل ، وشعر شكسبير المرسل هو قافية ما تبلغه المحاوراة التمثيلية من الجودة .

ولا يقف الوزن وحده للتفريق بين الشعر والنثر : فالإلياذة لا تقف عن أن تكون شعراً - في تعبير أدق - والنثر العام يختلف عن الشعر كأن يعالج في معظمه إحدى هذه الحقائق المألوفة المتبدلة ، كأن لا يبعث للخيال بشيء جديد وإلا فباحدى عمليات الفهم الشاقة المضنية ، وكأن لا يرضى بتلك الارادة أو الحركات العنيفة للخيال أو الأهواء .

وسأذكر ثلاثة كتب تأتى قريبة من الشعر وإن لم تكن شعراً ، وهى : تقدم الحاج (سياحة المسيحي) وروبنسون كروزو وقصص بوكاشيو .

وقد ترجم تشوسر ودريدن بعضاً من الكتاب الأخير الى شعر مقفى ولكن جوهر الشعر وقوته كانتا فيه من قبل .

فذلك الذى يصمو بالروح بعيداً عن الأرض والذى يجرد الروح من نفسها بأشواق نجل عن الوصف إنما هو شعر في النوع وهو يصلح عادة أن يكون كذلك في الاسم بتزويجه بالوزن الخالد ، فمن خصائص الشعر أنه يثير الخيال ويقويه .

« فيوحنا بنيامين » و « دانيال ديفو » يمكن أن يسمح لهما بالمرور في طريقهما فزج الخيال بالحقيقة في كتاب (سياحة المسيحي) لم يبار في أى كتاب استعارى آخر . فحجيجه علواً فوق الأرض وهم مع ذلك يسفون .

وما أشدها حماسة وما أبدعه جمالاً وما أصدقه خيالاً وأعظمه شعوراً عند وصفه المسيحي وهو يعبر النهر أخيراً فيه تصويره أولئك الذين تسطح عليهم الأنوار الزاهية داخل الأبواب وعلى ظهورهم أجنحة وعلى رؤسهم أكاليل الورد وهم مسحون الدموع من ما قيه .

ولكن ماذا نقول عن روبنسون كروزو؟ وما عليك الا أن تأخذ خطبة البطل

اليوناني عند مفادته مغارته - ومهما تكن جميلة - ثم اقرنها بتأملات المخاطر
الانجليزية في مكانه المنزل القصي .

فالأفكار عن الوطن وعن كل ما انفصل عنه انفصالاً أبدياً تثور وتخفق في
صدره كما يرتطم تيار المحيط الصاخب بصخور الشاطئ ، وإن ضربات قلبه لا تزال
تسمع وسط ذلك السكون الأبدي الذي يحيط به .

ولأن قصة مخاطرته لا تنهض قصة كالاوديسا - فهذا حق - ولكن القاص
توفرت لديه عبقرية الشاعر الفذ ، وقد سئل عما إذا كانت روايات ريتشاردسن شعراً
وربما كان الجواب هكذا : إنها ليست شعراً لأنها ليست خيالية ، فالعطف الذي أثارته
لم يكن ارادياً بل جاء متكلفاً . وما من شيء صدر عن النفس رأساً ، وهي في حاجة
الى كثير من المرونة والحركة . والقصة لا تعطى صدى لذلك المقعد الذي توج عليه
الحب ولم يفصح القلب عن نفسه كما يفصح الوتر في الموسيقى .

ولم يفسب الخيال أمام الكاتب بدون إعمال جهد في ترقبه . ولكنه جرّ بعدد
لا يحصى من الدبابيس والدواليب كتلك التي استخدمها أهل « الليبونا » في تقييد
جليفر وجره الى القصر الملكي نعم يوجد صدق عظيم وشعور في ريتشاردسن
ولكن هذا قد أخذ من الظروف المحيطة ولم يأت من النفس . وشاعريته كروح
أريل Ariel محصورة في شجرة الصنوبر وتحتاج إلى عملية صناعية لتخرجها !

وكتابات برك ليست شعراً رغم ما فيها من قوة التصور الواضحة لأن موضوعها
مبهم فامض جاف صناعي وليس طبيعياً .

فالفرق بين الشعر والفصاحة هو أن الأول فصاحة في الخيال ، والأخرى
فصاحة في الفهم أو الإدراك . الفصاحة تحاول أن تستميل الارادة وتقنع العقل ،
أما الشعر فيبرز تأثيره بمجرد الشعور البسيط . والشئ الذي يقبل النزاع لا يصلح
أن يكون موضوعاً للشعر ، والشعراء في الغالب كتاب نثر من النوع الرديء ، لأن
صورهم وإن كانت حسنة في نفسها فهي ليست كذلك في الغرض ولا تتسع للمحاورة .

والشعر الفرنسي تنقصه صور الخيال ، فهو شعر تعليمي أكثر منه مسرحياً .

وبعض شعرنا الذي نال كثيراً من الإعجاب هو شعر في الوزن فقط وفي الفائدة
المعروفة من العبارة الشعرية .

وسأختم هذه الإلمامة ببعض الملاحظات على أربع من المؤلفات الشعرية المشهورة في العالم في عصور متفاوتة ، وهي : مؤلفات هوميروس ، والتوراة ، ودانتى . ودعنى أضيف لهذه Ossian .

ففى هوميروس نجد نظرية الحياة وعملها ظاهرة ، وفى التوراة نظرية العقيدة والإيمان وفكرة العناية الآلهية ، وفى دانتى تشخيص للإرادة العمياء ، وفى أوسيان تدهور الحياة ونهاية العالم . وشعر هوميروس بطولى : فهو مملوء بالحياة والعمل وهو لامع كالنهار قوى كالنهر ، وهو يكافح بقوة ذهنه جميع أغراض الطبيعة ويدخل فى كل ماله مساس بالحياة الاجتماعية ، فقد رأى هوميروس كثيراً من الأقطار ووقف على أخلاق كثير من الرجال وجمع كل هذه فى قصيدته .

فهو يصف أبطاله ذاهبين الى المعركة غير مباليين بحياتهم هابيين بتأثير قوتهم الجسمية ، فتراهم أمامنا بكامل عددهم ونظامهم الحربى فى السهل ، والكل متحلر بأومة الشرف كالنعام كالطيور الحديثة الاستحجام ، لاهين كالمز ، جفلين كصفار العجول ، مملوئين شباباً كشهر مايو ، مغمورين بالجمال والبهاء كالشمس فى منتصف الصيف ، مغطيين بالسلاح البراق والتراب والدم بينما تشرب الآلهة شرابها النفيس فى أكواب من ذهب ، وقد اجتمع الشيوخ على أسوار طروادة يحيون هيلين وهى تمر بهم . وإن تجمع هذه الاشياء فى هوميروس عجيب رائع فى بهائه وصدق وقوته وتنوعه ، وشعره كدينه شعر الرقم والصورة : فهو يصف الأجسام كما يصف أرواح الرجال ، وشعر التوراة هو شعر الخيال والإيمان : فهو معنوى غير مجسد ، وهو ليس شعر الصورة ولكنه شعر القوة . ليس شعر الكثرة ولكنه شعر العظمة فهو لا ينقسم الى كثير ولكنه ينظم الى واحد . وهو ليس شعر الحياة الاجتماعية ولكنه شعر الوحدة . فكل انسان يظهر وحيداً فى العالم لا يعيش إلا مع العناصر الأولية للطبيعة : الصخور والارض والجو . وهو ليس شعر العمل أو حياة البطولة أو المخاطرة ولكنه شعر الإيمان بالعناية الآلهية السامية والتسليم الى تلك القوة التى تدبر هذا العالم .

وكما أن فكرة الله قد أبعدت كثيراً عن الانسانية وعن فكرة القول بكثرة الآلهة فقد أصبحت أكثر تظفلاً كما أصبحت أكثر عمومية لأن غير المحدود حال فى كل مكان : فلو طرنا الى أقصى أجزاء الأرض نجده هناك أيضاً ، وإذا عمنا شطر الشرق أو شطر الغرب لا نستطيع الإفلات منه ، وعلى ذلك لقد عظم الانسان فى صورة خالقه . وتاريخ البطارقة من هذا النوع فهم المؤسسون لنوع مختار من الناس والوارثون

لهذه الأرض وهم يعيشون في الأجيال التي تتلوهم ، وشعرهم كمقيدينهم الدينية فسيح غامض غير محدود فيه تخيُّل وتظهر فيه يد خفية .

وروح الديانة المسيحية توجد في هذا المجد الذي سيكشف فيما بعد .
ولكن في التاموس العبرى أخذت العناية الاكلمية حظاً مباشراً في أعمال الحياة .
وقد ظهر حلم يعقوب من تلك الصلة القوية بين السماء والأرض وقد كانت هي التي أنزلت سلعاً على مرأى من البطريق الشاب من السماء الى الأرض بملائكة يصعدون وينزلون عليه وقد سكبت نوراً وهجاً لن يخبو على المكان المنفرد .
وقصة « راعوث » تظهر كأن جميع ما في الأصل الانساني من شوق طبيعي قد طوى في صدرها وفي كتاب أيوب كثير من الأوصاف أكثر إسرافاً من التصوير وأكثر حدة في العاطفة من أي شيء في هوميروس كوصف حالة سعادته وعزّه وإزويًا التي جاءته ليلاً . والاستعارات في العهد القديم أقوى بياناً وقد تجمعت تلك الأشياء فدفعت أنجيلاً أمامها ، وقد كان دانتى أبا الشعر الحديث ، وعلى ذلك يحق له أن يحل مكاناً في هذه الحلقة . فقصيدته أول خطوة واسعة منذ الظلام القوطي وعهد الهمجية . وجهاد الفكر فيها للقضاء على العبودية التي كبلت العقل الانساني أجيالاً عدة يظهر في كل صفحة ، فقد وقف دانتى وحيداً غير هيَّاب ولا وجيلٍ على ذلك الشاطئ المظلم الذي يفصل العالم القديم من العالم الحديث ورأى أمجاد القديم بازغة من خلال وهدة الزمن بينما أبان الالهام عن جانبها الى العالم الآخر وقد تملكه الدهش مما رآه أمامه وقد تجاسر على مباراته .

ويظهر أن دانتى مدين للتوراة بنعمة الحزن في فكره وبفضبه الذي يشبه غضب الأنبياء والذي سما بشعره وأضرم ناره ، ولكنه يخالف هوميروس كل المخالفة فذكأوه ليس طبعاً متلائماً ولكنه حرارة أتون متقد فهو قوة وعاطفة وإرادة مشخصة .

وكل ما يتصل بالجزء الوصفي أو التصوري من الشعر لا يحتمل مقارنة بكثير من الذين سبقوه أو من الذين أتوا بعده ، ولكن توجد في آرائه أشياء معنوية قائمة كالثقل الميت على العقل : فذهول مخدّر ، ورعب من حدة التأثير ، وغموض مخيف كالذي يضايقنا في الأحلام ووحدة المنفعة التي تشكل كل شيء تبعاً لرغائبها وتلبس كل الأشياء بأهواء وخيالات الروح الانسانية . كل هذه تعوضنا عن كل نقائصه الأخرى . والأشياء المباشرة التي يقدمها للعقل ليست كثيرة في ذاتها فهي في حاجة الى الروعة والجمال والنظام ولكنها أصبحت كل شيء بواسطة قوة شخصيته التي طبعها عليها ، ففعله يعبر قوته الخاصة الأشياء التي يتأملها بدلاً من أن

يستعيرها منها . وهو يفتنم الفرصة حتى من موضوعه المتجرد المقفر . وخياله يعمرُ ظلال الموت ويفرخ في الهواء الصامت . وهو أشد الكتاب صرماً وأكثرهم شدة ومناعة وأعظمهم تناقضاً للشيء المزهري اللامع الذي يعتمد غالباً على قوته الخاصة والشعور بيبا في الآخرين والذي يترك فضاء عظيم الاتساع خيالي قرائه . وغاية دانتى الوحيدة هي أن يفيد ويرغب ، وهو يفيد بإثارة شعورنا بالعاطفة التي يدين لها هو نفسه .

فهو لا يقدم لنا الأشياء التي أوجدت العاطفة ولكنه يمسك بقوة انبهاها باظهاره لنا الاثر الذي تبعته في أحاسيسنا . وشمرة يعطى تبعاً لذلك نفس الحس الضامر كل شيء . وعدم احتمال وقوع الحوادث والمفاجأة وعدم التغير في الجحيم بالغة الحد ولكن الفائدة لن تضعف ابداً الغيرة الدائمة في عقل المؤلف ، وقوة دانتى الرائعة توجد في مزجه المشاعر الداخلية بالمظاهر الخارجية . لهذا كان باب جهنم الذي كتب عليه ذلك النقش الباهت يظهر أنه وهب الكلام والادراك وأنه يلفظ تحذيرها المروع بالشعور بالآلام الفنية . وسأذكر كاتباً آخر لا يمكنني أن أستميل نفسي لتظن أنه حديث خالص في الاصل وهو « أوسيان » فهو شعور واسم لن يزولا من عقول القراء . وكما أن هوميير أول من مثل القوة والبأس فأوسيان هو ممثل عصر هرم الشعر وفنائه فهو يعيش فقط في الذكرى والتأسف على الماضي ، وهناك أثر واحد أظهره بجلاء دون سائر الشعراء الآخرين وهو الاحساس بالفاقة وفقدان كل شيء من أصدقاء واسم طيب ووطن : فهو يكاد يكون من غير الآله في الحياة وهو يتحادث مع الأرواح الراحلة ومع السحب الثابتة الساكنة عندما يسكب نور القمر البارد لمعانه الذابل فوق رأسه ، وينظر ابن آوى خلصة من خلال الحصن المتهدم وأوتار قيثارته تظهر كأنها يد الدهر أو أن قصة العصور الأخرى قد أدركتها وهي تنبئ وتخشخش كأنها قصبات يابسة في ربح الشتاء .

فالشعور بالخراب الموحش وفقد لب الحياة وفناء المادة والتعلق بظل جميع الأشياء قد صور تصويراً رائعاً .

وعلى ذلك كان انتخاب Selma لفقد Salgar أروعها جميعاً . وإذا جاز لنا حقاً أن نعلن أن هذا الكاتب لم يكن شيئاً كانت هناك حالة واحدة لتعزيب ذلك ، فإن خلوه بقبعه فراغ في القلب ثم حصر لذلك الشعور الذي يجمله يشكو دائماً قائلاً :

« أيتها السنين المظلمة السوداء أتمني دورانك ولا تأت بفرح أوسرور على جناحك

نظمي لميل

إلى أوسيان « ٩ .